رسالة الأب صفرونيوس للأب زينون

عن التوحيد، والصلاة للإله الواحد المعلن في الثالوث القدوس

من رسائل الأب صفرونيوس

رسالة الأب صفرونيوس للأب زينون عن:

التوحيد، والصلاة للإله الواحد المُعلَن في الثالوث القدوس

٢٠٢٢

اسم الكتاب : رسالة الأب صفرونيوس للأب زينون عن التوحيد، والصلاة للإله الواحد المُعلَن في الثالوث القدوس.

المؤلف الأب صفرونيوس

الناشر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع - ١٤ ش محمود حافظ ـ ميدان سفير ـ مصر الجديدة - ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعـة : الأولى ـ أغسطس ٢٠٢٢

ما هو الإيمان؟

١- قبل أيِّ شيءٍ آخر، يجب أن نسأل ما هو الإيمان؟

والإيمان حسب ما سُلِّم إلينا هو اختيارٌ حُرٌّ شُيِّد على رؤيا باطنية لما يراه ويعاينه الإنسان. هو اختيارُ حياةٍ حرةٍ، لها حرية داخلية نابعة من اختيار ما هو أفضل، ولذلك قال الرسول إن الإيمان هو "اليقين بما هو غير مرئي أو غير منظور" (راجع عب ١١: ١)، فهو تذوُّقٌ للحياة يؤكِّد لنا أنه يوجد طريقٌ للحياة يختلف تمامًا عن طرقٍ أخرى للحياة، حياةٌ ليس فيها عبودية داخلية، حرةٌ من الخوف، وحرةٌ من البحث عن ثوابٍ خوفًا من عقاب؛ لأن هذا هو سلوك العبيد.

٢- هذا اليقين وُلِدَ من الخبر السار. خبر الإله المتجسد، الذي بتجسده أعلن لنا حقيقة الأُلوهة. وهو إعلانٌ منظورٌ في اللحم والدم، جعل اليقين يميِّز أن لدينا محبةً وتواضعًا إلهيًا، ومحبةً خاصةً بالإنسان جعلت خالق الإنسان يعيش بين البشر، ويجعل من حياته الإنسانية على الأرض إعلانًا عن أُلوهةٍ كانت خافيةً عن إدراك الإنسان، لأن الله الذي تجسَّد هو ما لا يتوقع الإنسان أن يراه أو يسمعه خصوصًا، وأن المتجسِّد دخل من أضيق باب، وهو الموت لكي يُصلَب ويفتح لنا بالموت طريق الحياة الأبدية.

إعلانٌ منظورٌ جعل الإيقان بما هو غير منظور، ثابتًا فيما أُعلِن.

الإيمان كما يقول نفس الرسول: "هو الثقة بما يُرجى" (عب ١١: ١)، والثقة في أن ما نطلبه ونرجوه له أساسٌ أو جذورٌ معروفةٌ، غير مجهولة، بل مدرَكة بالحق وبالإعلانات، ومؤكَّدة بما تحمله الطبيعة الإنسانية للقديسين والخطاة على حدٍّ سواء، لأن رجاء البشر كما نعرفه من الواقع ومن الكتب المقدسة هو في حياةٍ سعيدةٍ وفي سلامٍ مع الله، مع الكون، مع البشر، سلامٌ ثابتٌ في أعماق القلب لا يتزعزع مهما كانت المحن والتجارب.

٣- لندرس معًا -أيها المحبوب- مسألتين:
الأولى هي ماذا أُعلِن من الله حسب الكتب؟ والثانية ما هو الثابت في قلب الإنسان؟

حسب شهادة سفر التكوين كان الكلُّ يطلبون الله، وميَّز سفر التكوين بين آدم والذين أرادوا الصعود إلى السماء ببناء برج بابل الشهير، وبين إبراهيم وإسحق ويعقوب. لأن هؤلاء طلبوا الله من أجل الحياة معه مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب، أمَّا أولئك -آدم وأصحاب برج بابل- فقد طلبوا الله من أجل أن يزاحموه في الكون.

لنقف برهةً ونسأل: ألم يكن لهؤلاء إيمانٌ؟ ألا نرى أن لكلِّ إيمانٍ غايةً؟ الذين طلبوا الخالق وأحبُّوه، كانت غايتهم من الإيمان هي الشركة معه. أمَّا الذين طلبوا أن يصيروا مثل الله، فقد اشتهوا عظمة الله وأرادوا أن يكونوا مثل الله في سيادةٍ على الكون، ولكن تعذَّر

عليهم ذلك لأن الوسيلة كانت شريرةً، في حين أن الغاية كانت، بل ولا تزال هي سبب خلق الإنسان، أي أن يكون صديقًا لله. والوسيلة الشريرة لا يمكن أن تقود إلى أو تحقق غايةً صالحةً؛ لأن الشر له نهاية حتمية، أمَّا الخير فليس له نهاية؛ لأن نهاية الخير هي الله أبو كل صلاحٍ وخير.

٤- أيها الأخ المحبوب؛ ما هي غاية إيمانك؟ وما هي وسيلة إيمانك؟ هل تريد أن تبقى عابدًا لله دون شركةٍ في حياته، وهل تصبح عبادتك لله عبادة حقيقية، إذا قامت على العبودية وحدها؟ ألا ترى أن العبودية ضيقةٌ جدًا على الله والإنسان أيضًا؟ ألا تدرك أن عدم تطور ونمو الحياة مع الله هو الجحيم ذاته، حيث يقف نمو كل شخص عند حدِّ غايته التي سعى إليها وربط مصيره بها، وكثَّف الوسائل أو الوسيلة إليها؟ ألا تشعر في أعماق نفسك بأن في قلب كل إنسان رغبةً قويةً وصادقةً تجعله يطلب الكمال، ويسعى وراء الأعظم، ولا يستريح حتى يجد ما هو عظيم لكي يسعى وراء ما هو أعظم منه؟ فما هو الحد الأعظم في عبودية الإنسان لله؟ وكيف تقود العبودية وحدها الإنسانَ نحو الكمال في حياته ومحبته لله خالقه؟ إذا أجبت على هذا السؤال، وجدت أنه مثل السؤال الأول: ما هو الإيمان؟ لأن الإيقان بأن الله سيدٌ، والإنسان عبدٌ فقط، يُغلقُ على الله كل إمكانية فيض صلاحه، ويجعل صلاح الله محدودًا بما خلقه، وهو "العبد"، ويُغلق على الإنسان إمكانية التعرف على الله "كملء المحبة"؛ إذ يقف عند أعتاب سيادته حائرًا لا يدري ماذا يفعل وماذا يطلب؛ لأنه

مقيَّدٌ بحدود العبودية. هذه علاقةٌ تصطدم بأقوى رغبات الإنسان فيما هو أعظم، وبما يمكن أن نراه حتى بعيوننا المجردة، دون شهادة الوحي المقدس عن صلاح الله، لأن الفطرة التي تجعل الإنسان قادرًا على تصوُّر الله كعظيم ورحيم وصالح وجوَّاد، وفي نفس الوقت تقف عند صلاحٍ محدودٍ بالسيد الخالق، هي فطرةٌ تحتاج إلى شفاءٍ وتجديد، وهو ما جاء به الإنجيل كبشارة حياة بشكلٍ يفوق إدراك الإنسان وتصوُّرَه؛ لأنه أيُّ صلاحٍ ذلك الذي يقف عند السيادة، ويُغلق على الإنسان إلى الأبد كل فرص التقدم الأبدي الدائم نحو الكمال؟

وثمةُ مسألةٍ هامةٍ لا يجب أن تمر دون فحصٍ وانتباه، وهي:

ما هي علاقة الإيمان بكيان الإنسان وطبيعته؟

وهنا نضع أمام محبتك هذه الفروض لكي تختار منها ما يناسبك، ولكن عليك أنْ تدرك أنَّ كلَّ اختيارٍ يكشف في النهاية عن درجة معرفتك ومحبتك لله.

الفرض الأول:

إذا كان الإنسانُ عبدًا فقط، فلماذا نال حرية الاختيار من الله نفسه؟ وكيف يملك عصيان سيِّدِه؟ ألا ترى أنه كان جديرًا بالله أن يجرِّده من حرية الاختيار حتى لا يقع في العصيان؟ ولكن إن كان قد وقع في العصيان، ألا يدل ذلك على أن الله أعطاه الحرية لا ليكون عبدًا، بل كائنًا حرًا يندفع نحو خالقه بحريةٍ ومحبة؟ كيف استطاع الإنسان أن يبني ويعمِّر الكون، أليست كلمات المزمور الثامن هي شهادةً على أن الإنسان إلهٌ أقلُّ من الله؛ لأنه قيل بكل حق: "وضعته قليلًا عن إلوهيم" (مز ٨: ٥)، والتي وردت في الترجمة السبعينية "الملائكة"

خوفًا على القارئ من الوثنية، ومع ذلك فإن كلمات المزمور كافيةٌ: "وضَعتَ كلَّ شيءٍ تحت قدميه"، ثم يُعدد بعد ذلك الخليقة: "الغنم والبقر وبهائم الحقل وطيور السماء وسمك البحر وكل الكائنات التي تحيا في البحار". كيف تُوِّج الإنسان بالمجد والكرامة وهو عبد؟ ألا ترى في مصنوعات الإنسان من حديد ومعادن وأخشاب وحجارة، الدليل الملموس على أن الإنسان "خالقٌ صغير"، ليس مثل الله فهذا جنون، بل نال قدراتٍ من الله ترفعه فوق حدود طبعه؟ هل تذكر الأخ اسحق الذي وُلِد بلا يدين، كيف تعلَّم أن يعمل بقدميه وأصابع قدميه، بل ابتدع كرسيًّا بعجلات جعله يعمل أمام "النول" وينسج أقمشةً من الصوف والكتان، فاقت جودة بعضها ما كان يعمله النساجون الذين لديهم أيادٍ. والأخ منهور الذي وُلِدَ بلا عينين، تفوَّق علينا في الموسيقى، وفي إتقان اللغتين المصرية (القبطية) واليونانية. وما أكثر الأمثلة التي نقرأ عنها في الكتب الكنسية؛ أرسانيوس الذي أتقن سهر الليل دون نوم، ومكاريوس الذي أتقن الوقوف أيامًا بلا حركة، والذين يصومون بالأسابيع، والحُبساء الذين يقضون سنواتٍ في مغارات، والذين عاشوا فوق الأعمدة مثل سمعان السرياني. لقد تفوَّق كل هؤلاء على حدود الطبيعة الإنسانية في الحياة النسكية. وماذا عن الشعراء والفلاسفة والفنانين، فالحديث عن هؤلاء طويل جدًا.

لقد وضعت هذا الفرض الأول في إيجازٍ شديد، لكي يجعلك تدرك أن الإيمان بأن الإنسانَ مجردُ عبدٍ فقط، يجعل الإيمان بالله قاصرًا على السيادة وحدها، ويحطم الإنسان نفسه، ويخلق الذلةَ والخنوع والكسل، وينشر القهر والاستبداد بين الناس؛ لأن السادة

الذين يشاركون الله باختطاف سيادته، إنما يعملون كل ما في وسعهم لنشر العبودية باسم الله لكي يحلو لهم أن يعملوا ما يرضي نزوات نفوسهم.

والفرض الثاني:

هو أن الإنسانَ عبدٌ وصورةُ الله في نفس الوقت. هو عبدٌ لأن له طبيعة محدودة لا يملك أن يتخطاها. فهو قد يَسبَح في الماء، ولكنه يعجز عن أن يطير في الهواء. وهو يعمل في ساعات النهار، ولكنه يحتاج للضوء لكي يرى، ويعجز عن ممارسة ما يريد في الظلام إلَّا في حدودٍ معروفة. وهو قد يصوم عن الطعام والماء، ولكنه مضطرٌ للأكل والشرب بعد ذلك. وهو يسهر، ولكن التعب يغلبه وينام بعد ذلك. وقد يستطيع البقاء في البرد أو الحر، ولكنه يسعى إلى مأوى آمن بعد ذلك. نعم، هذه حدود العبودية لطبيعة خُلقت في حدودٍ لا تقوى على أن تتركها؛ لأن البيئة تفرض على الإنسان الالتزام بما هو مناسب لحاجات الجسد من طعام وشراب ومأوى وملابس ونوم وغيرها. وإذا أمكنه أن يتخطى هذه الاحتياجات لفترةٍ وجيزةٍ، فإنه لابُد وأن يعود إلى طبعه، ويلتمس ما هو عادي ومقبول. لكن هذه الحدود لم تمنع الإنسان من أن يكون خالقًا صغيرًا؛ لأن بناء المساكن يُظهِر قدراتٍ للتفوق على البرد والحر. واختراع الكتابة جعل عقل الإنسان يتقدم على الحيوان بما يألفه من تراث السابقين، فهو يبدأ من حيث انتهى الجيل السابق. وقدرة الذاكرة على الاستيعاب والحفظ جعلت الخبرات الماضية مثل سجلٍ يرجع إليه الإنسان لكي يتعلم كيف

يطوِّر حياته. والمخيلة -هذه القدرة الفائقة- جعلت للفنان والشاعر والفيلسوف مكانةً خاصةً، بل صارت مثل مرآةٍ للنفس يرى فيها الإنسان ذاته جسدًا وروحًا، بل أن يراها في مرآةٍ زجاجية[1]، وتعمل الذاكرة والمخيلة معًا، فيرى الإنسانُ الأشياء البعيدة، بل أن الأنبياء -تحت سلطان الروح القدس- عاشوا أحداث المستقبل، وقد رُسِمَت بقدرة الروح القدس في المخيلة والذاكرة معًا؛ لأن الروح القدس طهَّر مخيلة الأنبياء والمعلِّمين فقدَّموا، ليس فقط الصور العقلية مثل تلك التي وردت في الأسفار مثل سفر الرؤيا، بل أيضًا الأمثال مثل تلك التي سُلِّمت إلينا من آدم الثاني الرب يسوع المسيح. ثم ماذا نقول عن عطش الإنسان إلى المحبة، ذلك العطش الذي نراه في الصلوات والتراتيل في الكتب المقدسة وكتب الكنيسة وكتابات النساك ومعلمي الإيمان؟ من أين أتت القدرة لأنطونيوس العظيم أن يسلك طريق النسك إن لم تكن صورة الله فيه حيةً عطشى لمحبة الله؟ وكيف جاهد معلمنا العظيم أثناسيوس الذي نال لقب "الرسولي" واقترب من الموت على أيدي الظالمين وعاش في الأسر وفي الخفاء للدفاع عن الأرثوذكسية؟ بل وفي أيامنا هذه، كيف سار الشاب ميخائيل إلى النار الهائلة التي أشعلها الظالمون حتى لا ينكر الإيمان؟ والأخت سارة التي دهنت رقبتها بالزيت لكي تموت عذراء ولا تباع عبدةً في مواخير الظالمين، ولما ضربوا رقبتها بالسيف ماتت من أجل العفة. وتاريخ الكنيسة، ومن قبل ذلك ما دوَّنه الرسول في رسالته إلى العبرانيين عن

---

[1] "معدنية" هي الكلمة الأصلية، ولكن حيث لا توجد لدينا مرايا معدنية، فضَّلنا كلمة زجاجية.

أبطال العهد القديم، هؤلاء عاشوا ليسوا كعبيدٍ للطبيعة، لأننا جميعًا نخاف الموت ولا نحب الألم، بل نهرب منه، ولكن عندما يرتفع هؤلاء فوق هذه الحدود، لابُد لنا من الاعتراف بأن الإنسان ليس عبدًا فقط، بل هو مؤهَّلٌ لما هو أعظم وأرفع من حدود الطبيعة الإنسانية وما تفرضه عليه قيود الحياة الإنسانية.

غاية الإيمان

٥- إذا كان للإيمان غايةٌ، فما هي الوسيلة أو الوسائل التي يملكها الإنسان، وتلك التي يقدمها لله؟

أتوسَّلُ إليك في يسوع المسيح ربِّ الحياة ومعلِّم الصلاح أن تقف قليلًا أمام هذا السؤال؛ لأن الغاية والوسيلة هما معًا قطعةٌ واحدة من نسيجٍ واحد لا يمكن فصلهما، والسبب في ذلك هو أن الإنسان ذو إرادة وله عقلٌ وقادرٌ على أن يسلك طريق الحق والصواب، أو أن يرمي نفسه في حفرة الظلام والموت.

- **إذا طلب الايمانُ اللهَ كسيد، وحدَّد الإيمانُ الإنسانَ عبدًا، صارت كل الوسائل مجردَ طقوسٍ لإرضاء السيد والخضوع له، وبذلك صار الإنسان مقيَّدًا بغاية إرضاء الله كسيد، وتحوَّلت الطقوسُ من وسيلةٍ إلى غاية، بل صارت قيدًا يجب الخضوع له والتمسك به. كيف؟ لأن الانحناء والسجود والاغتسال بالماء وغيرها من ممارسات خارجية، لا علاقة لها بالله نفسه، وإنما هي الوسائل التي اختارها الإنسان لكي ينال بها رضاء**

الله، بينما تظل الحياة العقلية (الروحية) بعيدة تمامًا عن كل تطهيرات الجسد؛ لأن تطهير الجسد الحقيقي هو في القلب والإدراك، وليس في أي ممارسة خارجية، بل الممارسة الوحيدة التي تجعل الجسد طاهرًا هو نقاء القلب وطهارة السريرة وصفاء الرؤية، وهذه لا تأتي بغسل الماء، بل بغسل الروح الذي يقدِّمه روح الله القدوس الذي يطهِّر الإنسان من أصل النجاسة الروحية، أي الابتعاد عن الله، وجهل صلاح الله ومحبته.

- إذا سعى الايمانُ وطلب الله كآبٍ حقيقي خالق وفادٍ ومعلِنٍ عن نفسه، صارت الطقوسُ الوحيدة التي تتوافق مع الإعلان عن الله جزءًا لا يمكن فصله عن الغاية؛ لأن إعلان الله هو الذي يملك أن يحدد وسيلة قبول الإعلان، والطقوس هنا هي ترتيبٌ لقبول الإعلان والانضمام إلى الشركة. وهنا تختفي ثنائية الغاية والوسيلة. وقد حقق ذلك ربُّ المجد نفسه، إذ صار هو الغاية والوسيلة معًا، ونحن نعبِّر عن ذلك بكلمة واحدة هي "الوسيط"، وبكلمة أخرى لا تختلف عن هذه الكلمة، وهي "الرأس"، وصارت كل إعلانات الرب يسوع مؤكِّدةً لنا هذه الحقيقة: أنَّ يسوع هو الوسيط ليسوع، وأن المحامي أو الباركليت الذي يُلزِمُنا بالتقديس الذي يجود به من ذاته، أي من قداسته، هو الروح القدس. وصارت الطقوس الكنسية علامات وإيماءات ورموزًا سريةً تشير إلى هذا وتؤكِّده لكي يفهم الإنسان هذه الحقيقة السامية، وهي أن الله هو

الوسيط لله، وأن الله هو الغاية وهو الوسيلة؛ مما يجعلنا هنا نؤكِّد أن الله هو الغاية والوسيلة؛ لأنه الثالوث القدوس.

٦- إذا كانت غاية الإيمان هي الشركة في الله، صارت الشركة هي مميزات الإعلان عن شركة الثالوث في جوهر واحد أو في حياة واحدة. وصار الثالوث هو النموذج الأعظم (τύπος) الكامل لكل شركة، وصار التبني -كعطية- غايةً ووسيلةً معًا؛ لأن الإنسان، إذ يطلب -بالإيمان- أن يكون ابنًا لله، صارت حياته -كابنٍ لله- غير منفصلة بالمرة عن حياة الابن، وصارت بنوة الإنسان لله هي غايته وصارت وسيلته أيضًا؛ لأنه عندما يحيا حسب شريعة الحياة الجديدة يجد سعادته في هذه الحياة، ويجد في غفران الخطايا ومحبة الأعداء وتقديم ما يملك، أنه يدخل في صميم الحياة مع يسوع المسيح؛ لأن هذه هي صفات الحياة الجديدة. والأهم أن الحياة الجديدة في يسوع المسيح، جعلت السلوك المسيحي وسيلةً من وسائل التشبُّه بالمسيح، ولدعم الاتحاد به؛ لأن مَن يغفر، ينال الغفران، ومَن ينال الغفران يثبُت في الإيمان، ومَن يثبُت في الإيمان، يعلم أنه صار أخًا أو أختًا لكل إنسان، إذ صار كل إنسان هو أخًا أو أختًا ليسوع المسيح بسبب تجسد ابن الله.

تأمَّل -يا زينون- هذه الحقيقة البسيطة، والدفة التي تحرك سفينة الحياة نحو المسيح، إذ صار المسيحُ نفسه هو سفينةَ الحياة، فلا تشتُّت ولا تعدُّد للأهداف، ولا انقسام أو انفصال بين الغاية والوسيلة. ثم قارن بين هذا، وبين ما نراه عند الآخرين، إذ تحوَّلت

الصلاةُ إلى فرائض تجلب رضى الله، وتحوَّلت الطقوس إلى ممارساتٍ لا علاقة لها بالفرائض.

خبِّرني؛ ماذا يفيد الاغتسال بالماء، إذا كان للخطية جذرٌ في الحياة العقلية لا تقوى المياهُ على خلعِهِ، بل يغتسل الجسد ويصبح نظيفًا، بينما تظل الحياةُ الداخلية ميِّتةً بلا ثمرة؟ ويسجد الناسُ لله من أجل رضى الله، بينما يفقد السجودُ معناه لأنه أصلًا شركةٌ في تواضع الذي "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (في ٢: ٦)؛ لأننا عندما نُلامس الأرض نعترف بالتجسد، وعندما نسجد نضع أنفسنا مع يسوع المتواضع، وعندما نقوم نقف معه ونصبح "قياميِّين" قد تركنا الأمور الأرضية، وصارت قلوبنا فوق مع يسوع الجالس عن يمين الآب في الأعالي.

٧- ولم يَعُد الصومُ فرضًا تقوم به النفس لإرضاء الله، بل حرية القلب وترك لذة الطعام سعيًا وراء سعادة الروح، ومتى صام الإنسان صار صومُه جحدًا للأهواء وتركًا للأمور الأرضية؛ لأنه فرحٌ بما هو سمائي.

الإيمان بالله واحد حسب تعليم الرب يسوع

٨- ما هي غاية الإيمان بالله واحد؟

حسب تعليم المسيح، أن نكون واحدًا نحن جميعًا مع الآب في الابن بالروح القدس. مع الآب في الابن بسبب اتحاده بنا. وفي الروح القدس؛ لأنه رباط المحبة الروحية.

التوحيد (في المسيحية) وحسب تعليم الرب يسوع، هو أن "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يو ١١: ٥٢). ولاحظ -أيها المحبوب- أنه كان يتحدث وقتذاك عن الصليب، فقد "رُفِعَ" على عود الصليب "وأنا متى ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع" (يوحنا ١٢: ٣٣). وهو قد "رُفِعَ" على الصليب لكي "يرتفع إلى السماء" (أع ١: ٩)، رُفِعَ ودخل في سحابة المجد الإلهي (الشاكيناه) عند صعوده؛ لأنه مُجِّد كآدم الثاني على جبل طابور مُعلِنًا حياة الدهر الآتي أولًا: بالارتفاع على الصليب، ثانيًا: بالتجلي قبل موته ليعلِن مجد الطبيعة الباذلة، وثالثًا: بدخوله حياة المجد بالناسوت بعد أن عَبَرَ من بوابة الموت، وداس الجحيم على الصليب، ونزل إليه منتصرًا وحطَّم المتاريس، وقام بغلبة الحياة لكي يحمل معه إلى السماء هذه "الغنائم"، ويستودعها قدس الأقداس لكي يوزِّعها روح الآب على المؤمنين به، ويعطي كل هذه الغنائم إلى الكنيسة (راجع أف ٤: ٨ - ١٣).

٩- الوحدةُ هنا تبدأ بالتخلي عن الذات بالارتفاع إلى ما هو أعلى من الذات بالمحبة الباذلة، ومِن ثمَّ بقبول أكبر إعلانات الله عن التوحيد (المسيحي)، وهو التواضع، ثم البذل الذي يؤدِّي إلى مجد القيامة وحياة الدهر الآتي عندما يصبح الله "الكل في الكل" (١كو ١٥: ٢٨)، وينتهي الكل إلى وحدانية كاملة مصدرها وحدة جوهر اللاهوت التي تحفظ الاختلاف بين البشر مقدَّسًا في المحبة، لكي ينمو الكلُّ إلى "ملء قامة المسيح" (أف ٤: ١٣) في وحدة كاملة بعد أن نَزَعَ الربُّ يسوع من الإنسانية شوكة الخطية والموت التي حوَّلت الاختلاف بين البشر من مصدرٍ للغنى والنمو، إلى مصدرٍ للصراعات والتناحر بسبب انعدام المحبة.

١٠- كيف يبدأ التوحيد فينا بالتواضُع؟

والتواضُع هنا ليس تواضُعَنا نحن، بل تواضُع الربِّ الذي عندما "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦)، كَسَرَ شوكة الكبرياء، وشتَّتَ كلَّ صورةٍ زائفةٍ عن اللاهوت، وأباد حكمة الحكماء، وفتح أسرار أسفار العهد القديم، وأسَّس الحياة الجديدة في الكنيسة. هل يبدو لك الأمرُ صعبًا؟ لأن تنازُل الرب إلى "صورة العبد" يبدو كما لو كان مقدمةً للموت على الصليب، ولكن تجسُّد الرب وموته المحيي على الصليب هو بداية الإعلان عن التوحيد (المسيحي)؛ لأن الرسول أكَّد هذه الحقيقة: "لذلك رفَّعَهُ اللهُ وأعطاه اسمًا فوق كل اسمٍ لكي تجثو كلُّ ركبةٍ باسم يسوع ويعترف كلُّ لسانٍ أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب" (في ٢: ٨). وعندما وصلتنا هذه البشارة، وبالاعتراف

بيسوع "ربًّا لمجد الله الآب"، أصبح التوحيد المعلَن من الله توحيدًا نابعًا من الاختبار الحر، وليس مجردَ قضيةٍ عقليةٍ ينفي فيها الإنسان وجودَ آلهةٍ أخرى، ثم يتوقف عند الاعتراف بالهٍ واحدٍ لم يدخل حياة الإنسان الحقيقية، أي الجسد والدم والفكر والشعور، وهو ما نطلق عليه هذا الاسم العام: "الناسوت"، وهو الحياة الإنسانية الحقيقية بما فيها من صراعات ومحبة وبُغضة وخطية وموت وحرية وعبودية.

هذا الكل المعروف لنا باسم الناسوت، هو دنيا (عالم) الإنسان الحقيقي الذي دخله الله نفسه بتجسُّد ابنه الوحيد، ولم يدخله كأقنومٍ واحدٍ بل دخله كثالوثٍ مُعلِنًا بذلك نهاية الانقسام، ومؤسِّسًا شريعة التوحيد الحقيقي: الله واحد في ثالوث، وثالوث في وحدانية.

والعبارة الأولى "الله واحد في ثالوث"، هي دعوةٌ إلى العودة إلى الينبوع الواحد "الله الواحد".

والعبارة الثانية "ثالوث في وحدانية"، هي دعوةٌ للتقديس واعتبار، بل قبول التمايُز كقاعدة للحياة مع الله، وكقاعدة للشركة أساسها في الجوهر الإلهي نفسه.

وما هي علاقة هذا بإخلاء الذات؟

والجواب هو أن تواضُع الله أعلن لنا هذه الحقيقة الفائقة مؤكِّدًا لنا أن دخول باب الإيمان يبدأُ بطرح كلِّ تصوُّرٍ عن القوة والمجد والسلطان، ذلك التصور الذي زَرَعَه الشيطان نفسه، ثم كبر ونما في الحياة الإنسانية بسبب الخطية.

١١- هلمَّ الآن يا مَن تبحث عن الحقيقة، وتعالَ وانظر إلى هذا الإعلان: **القوة التي توحِّد ليست مثل القوة التي تمزِّق وتُبيد.** القوة التي تزرع ليست مثل القوة التي تقلع. والمجد الذي يرفض أن يشترك فيه آخرون، هو مجد الشيطان الذي يريد أن يحفظ لنفسه مجده وسلطانه لكي يسود على البشر ويحارب الله بكل ضراوة، ولكن في عمى كبرياء الشيطان لا يرى الشيطانُ أن قوَّتَه زائفةٌ، وأن كل ما يبنيه بالقوة، يهدمه الله بالتواضع والرحمة.

تأمَّل هذه الجسارة الشيطانية: عندما عَرَضَ الشيطانُ على الربِّ أن يسجدَ له لكي يعطي له كل ممالك العالم (لو ٤: ٥)! لقد عَرَضَ على الرب المجد الزائف الذي يظن أنه دائمٌ له، ولكن المسيح دخل "بيت القوي" (متى ١٢: ٢٩) ونهب أمتعته بالتواضع وبالمحبة، وأعلن مجد المحبة الذي يتودد ولا يقتَحِم، يخدِم ولا يسلِب، يبذِل ولا يستولي؛ لأن الفرق بين الودِّ والاقتحام هو فرقٌ بين الله والشيطان. والفرق بين الخدمة والسلب هو فرقٌ بين القداسة والخطية. والفرق بين البذل والاستيلاء هو فرقٌ بين السيد الحقيقي الله الجوّاد، والسالب؛ الشيطان الماكر الذي يدَّعي السيادة.

هل صار الفرقُ بين الله والشيطان واضحًا أمامك الآن؟

ما الذي يدفع الله إلى البطش بالخليقة وبواسطة الخليقة، أي أن يُسلِّط الناسَ على الناس؟ لقد قرأتَ العهد القديم ولم تفهم أن له (خلفية) تاريخية، وهي حقبة انتهت بالسبي، تعلَّم فيها إسرائيل أن القوة ليست هي وسيلة الخلاص، ولم يكسب إسرائيل كل حروبه مع

الشعوب المجاورة، ولم يؤكِّد الأنبياء من أشعياء إلى ملاخي أن النصر هو بالسيف، ثم توقَّف هذا تمامًا عند خضوع اليهودية والسامرة لحكم الرومان بعد نهاية حكم اليهود (المكابيين)، بل وجاء الرومان ودمروا الهيكل، وسَبُوا شعبَ اليهود وقادوهم أسرى إلى روما لكي ينقلوا معهم بشارة الإنجيل، ولذلك السبب لم تَمُتْ بذارُ البشارة التي زرعها الرسل.

بعد كل هذا، هل يمكن أن يعود التاريخ القديم: السبي والقتل وتدمير الحياة باسم الله، وبواسطة إعلانٍ نبويٍّ لا يمكن مصالحته مع الصليب راية الغفران التي رُفِعتْ على الجلجثة؛ لكي تعلن نهاية استخدام القوة في نشر الإيمان، والتي تحكم على العنف والقتل والعداوة والخديعة بأنها ضد المصالحة والتبرير والغفران، وقبل كل هذه، المحبة الباذلة؟

١٢- حاوِل أن تقترب من تواضُع المصلوب. حاوِل أن تفهم لماذا يخدم القويُّ دون أن يسود. حاوِل أن تحس في قلبك بأن تواضُع العظيم هو العظمة الحقيقية. هذه هي لمسة روح الله التي تجعلك ترى الأمور بشكلٍ آخر، وتجعلك تحس بها في قلبك إحساسًا قويًّا صحيحًا يجعلك تقترب من مواعيد ابن الله، بأن روح الآب يفتح قلبك لكي ترى أن الإيمان بما هو جميلٌ وحقٌّ ومقدَّسٌ، هو بلا بُغضة وبلا كبرياء وبلا كراهية، وأن صلاح الله لا يقوم بالقوة، وأن تواضُع الله تجلَّى أولًا: في خلق الإنسان من العدم، وثانيًا: في استعادة وَرَدِّ الإنسان إلى الشركة. هذه هي النقطة الفاصلة التي تفترق عندها

طريقان؛ طريق الحق حيث المحبة والخلاص، وطريق الموت والضلال الذي يقوم على القوة والاستعلاء والقتل والبُغضة. طريق المحبة هو المصالحة. وطريق الكراهية هو الرفض والقتل. طريق الحق هو ردُّ الميِّت إلى الحياة. طريق الكذب هو بقاء الميت في الموت.

لهذا جاء يسوع يشفي المرضى، ويقيم الموتى، ويحرر الذين تسلَّط عليهم الشيطان. هذه لم تكن معجزات لإعلان القوة وحدها بلا محبة، أو إعلان السلطة بلا صلاح، أو القدرة بلا تواضع، بل المحبة الشافية.

١٣- هذه كلها إعلانات وتعليم الرب يسوع عن الآب الواحد، ولذلك لعلك رأيت بنفسك أن الربَّ لم يتكلم عن الله إلَّا مرَّتين[٢] وإنما كان كلُّ تعليمٍ وإعلانٍ هو عن الآب، وقد قدَّم لنا الربُّ يسوع أبوةَ الله الآب من خلال ميلاده من العذراء وإعلان بنوته، وأبوة الآب وحلول الروح القدس في معموديته في الأردن، ثم التعليم والكرازة بالملكوت وموته المحيي على الصليب وقيامته من الأموات، وصعوده إلى الآب، وإرسال الروح القدس المعزِّي.

لقد تجسَّد الابنُ لكي يعلن أن اللهَ هو الآبُ الواحد، وأننا نحن عائدون إليه كأبناء بعد أن ضللنا وصِرنا عبيدًا أولًا: للجسد، وثانيًا: للشيطان، وثالثًا: للعالم وأركانه (كولوسي ٢: ٢٠)، أي المقاييس والمعايير التي تخدم القوة والتسلُّط والخوف والقهر، وتؤدي إلى الموت الروحي.

---

[٢] المرة الأولى على الصليب (مر ١٥: ٣٤)، والمرة الثانية بعد القيامة (يو ٢٠: ١٧)، وفي المرة الثانية أكد بعد موته أن الله هو الآب "أبي وأبيكم".

١٤- كيف أعلن تجسَّدُ ابن الله وحدانية الله؟

والجواب هو أنه أعلن ذلك من خلال بنوته للآب وأبوة الآب له ولكل الجنس البشري الجديد الذي يقبل التبني. هنا، الله الواحد هو الآب الواحد، وله الابن الوحيد الذي يأتي بأبناء كثيرين إلى هذا المجد. هذا هو توحيدُنا، وهو هنا كما ترى -أيها الأخ المحبوب- ليس فكرةً تقال، أو عبارةً تصاغ، أو اعترافًا بألفاظٍ، بل قبل الفكرة والعبارة والاعتراف، يوجد **أولًا:** الإعلان، **ثانيًا:** الاختبار الحي للبنوة.

نحن جميعًا نعترف بأن الله غير منظور. هذه حقيقة جميلة لا يمكن أن ننكرها؛ لأن الله المنظور هو مجردُ وثنٍ، وهو لذلك من اختراع الإنسان. ومع جمال الإيمان بالله غير المنظور، يجب أن نؤمن أيضًا بجمال الإعلان، لا بالكلمة المسموعة فقط، بل بالكلمة التي تخاطِب وتعلِن العلاقة الجديدة، وهي الشركة في حياة الله. شركةٌ تفتح لنا بها الكلمةُ البابَ لكي نمُرّ من خلال يسوع كوسيط، ولكي -بالتلمذة له- نصبح أبناءً نتعلم منه ومن حياته ومن مثاله كيف نشترك في حياته نفسها؛ لأن هذه الشركة تجعل كلَّ واحدٍ مِنّا واحدًا حقًا، وأنا أعني هنا الواحد الذي يحيا في وحدة، والذي لا ينقسم ولا يُصارِع الانقسام الداخلي، بل يحيا كواحدٍ يعرف أن الواحد هو وحدة، وهو لذلك واحدٌ في جماعة الرب الكنيسة المقدسة جسده الواحد. هو واحدٌ يشترك في موت الرب وقيامته في أسرار الانضمام إلى الكنيسة لكي يكون حقًا واحدًا. هذا من الكلمة التي تبشِّر إلى الإعلان في المتجسد ليقودك إلى الآب ويعلن لك التوحيد الحقيقي من خلال التلمذة له لكي تصبح أنت الواحد واحدًا مع الثالوث وفيه، وواحدًا

مع الكنيسة الواحدة، أي واحدًا مع جماعة المؤمنين الواحدة.

تعال إذن وادخُل هذه الشركة حتى لا تقف عاريًا مع كلمة "واحد"، وهي كلمةٌ بالرغم من صدقها، ولكن معناها الحسابي يضيع عندما تواجه الله، وعندما تواجه نفسك؛ لأنك مع الله أنت وهو اثنان، كلٌّ منكما غريبٌ وبعيدٌ عن الآخر. ولأنك رغم إيمانك بأنه واحد، إلَّا أنك لا تعرف عن هذا الواحد إلَّا ما يمكن لك أن تقوله وتنطق به، وهو غير معلَنٍ في شخص، بل معلَنٌ في سطور وكلمات هي كتاب، مهما كان صدقه أو كذبه، لا يفتح لك باب الشركة لأن الشركة في الله هي معيار الحق الذي جاء به الإنجيل.

١٥- إن يسوع يدعوك، ليس بكلماتٍ فقط، بل بحياته التي عاشها معنا، والتي يريد أن يعيشها فينا، وأن نعيش نحن حياته مع الآب بقوة الروح القدس. هذا هو الطريق إلى الحياة الأبدية:

- إن آمنت بأن يسوع ربٌّ وإله، فأنت لا تُشرِك بالله، بل تشترك في الله.
- إن اعترفت بأن يسوع ربٌّ، فأنت لا تنكر التوحيد، بل تحيا التوحيد الحقيقي الذي يجعلك تقول مع كل المؤمنين: واحدٌ هو الآب القدوس، واحدٌ هو الابن القدوس، واحدٌ هو الروح القدس، حسب القداس الإلهي.

إلهٌ واحدٌ في ثالوث، وثالوثٌ في واحد، كما نرتل في زمان العنصرة؛ لأنك عندما تقول إن الآب واحدٌ، تصبح أنت نفسك

واحدًا مع الآب.

وعندما تقول إن الابن واحدٌ، تعترف بقبولك رتبة التبني كابنٍ واحدٍ في الابن الوحيد.

- وعندما تقول إن الروح القدس واحدٌ، تقبل التقديس الذي يشفي الانقسام الذي جاءت به الخطية، والذي شطر الإنسان إلى روح وجسد وجعله غريبًا عن الحياة الإلهية.

١٦- هذه هي دعوة الإنجيل. ليست ألفاظًا أو كلمات، فما أفظع أن تصبح الكلمات في عقل قائلها بلا حقيقة تتجاوز عقل القائل، وأن تصبح مجرد كلمات ليس لها في الواقع أي صدى. ونقصد بالواقع هنا ما هو أبعد وأعظم من الوجود الإنساني، أي مجال الحياة نفسه حيث الله والكون وسائر البشر. بينما كلمة الواحد تجد معناها في وحدانية الجوهر الإلهي الذي نعاينه في شركة الآب والابن والروح القدس، وفي الوحدة التي نتذوقها أولًا مع غيرنا من المؤمنين، وثانيًا من المصدر الحقيقي لكل وحدة وهو الثالوث، وثالثًا في اختبار الموت والقيامة مع المسيح الذي يزرع فينا المعاني الحقيقية لكل كلمة تُقال ولكل ما جاء في الوحي الإلهي أي أسفار كتاب الله، العهدين؛ عهد الطفولة، وعهد البلوغ والكمال.

١٧- كيف غيَّر التجسُّد معاني الكلمات، وأعاد لكل كلمة معناها الدقيق[٣]؟

---

[٣] هناك فقرات لا تختلف عن هذه الفقرات في المئوية الأولى للأب صفرونيوس عن

حقًا كان الناسوت شيئًا، واللاهوت شيئًا آخر، ولكن جاء التجسُّد وجعل "الاثنين واحدًا". ومع بقاء اللاهوت كما هو، تحوَّل الناسوت من الموت إلى الحياة ومن الفساد إلى عدم الفساد ومن سيادة الخطية إلى نعمة التبني.

هكذا لم يعد اللاهوت غريبًا بعيدًا، والناسوت ميِّتًا راقدًا في القبر، بل أخذ ابن الله جسدًا مثل أجسادنا -بلا خطية- ونفسًا مثل نفوسنا -بلا عبودية للموت والشيطان- وإرادة مثل إرادتنا، ولكنها لم تنشأ وتنمو في الاغتراب عن اللاهوت، بل تأقنمت في وحدانية الأقنوم الإلهي المتجسد، وصارت بذلك حيَّةً وعاملةً ومتحركةً بقوة الاتحاد لا بقوة الانفصال والاغتراب التي تنمو فينا بسبب الجهل وبسبب الخطية.

صار الاثنان واحدًا، اللاهوت والناسوت في أقنوم الكلمة المتجسد الذي لا يعرف الانقسام؛ لأنه لم يُولد في الخطية، ولا يعرف الانفصال؛ لأنه لم يكن عبدًا للموت ذلك الداء الخفي الذي يحرِّك الإنسان لطلب الخلود الزائف من كيانه بعيدًا عن الله. هكذا هدم التجسُّدُ الموتَ وجاء بالوحدة والمصالحة بين الله والإنسان. ولم تعد البشارة كلامًا يُقال، بل خَبَرًا وإعلانًا عما حدث، وصارت الكلمة إشارةً لما هو كائن، وتحولت الكلمات إلى إشاراتٍ تأخذ معانيها مما هو كائن[٤] فعلًا، أي من الواقع نفسه.

القيامة والكون والإفخارستيا، منشورة على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية www.coptology.com

[٤] الكلمة القبطية تعني ما هو متحرك ويعمل، ما هو كائنٌ فعلًا، ما هو حيٌّ.

ما هو المعنى الحقيقي لكلمة "واحد"؟

هكذا نفهم الإيمان؛ لأن "واحد من اثنين" تعني أنه هدم "الحاجز المتوسط" الذي بناه اليهود لكي يمنعوا دخول الأمم إلى الهيكل. وهكذا صار "الاثنان واحدًا" في العالم، أي في الحياة الحقيقية لأن الميلاد الجسداني من شعبٍ معيَّنٍ لم يعد وسيلةً للخلاص أو لنوال المواعيد، بل فَتَحَ التجسُّد باب بركة المواعيد لكل الشعوب. وصار "الاثنان واحدًا"، أي العمل الإلهي والعمل الإنساني؛ لأن الله لا يعمل إلهيًّا بدون الناسوت، ولا الناسوت يعمل إنسانيًّا بدون اللاهوت، بل عملٌ إلهيٌّ – إنسانيٌّ [٥].

هذا ما جاء به التجسُّد، وبعد التجسُّد أصبح طريق الحياة هو شركة كل مؤمن في العمل الإلهي – الإنساني؛ لأننا -كبشرٍ- لا بُد لنا من "السينرجية"[٦]، أي التناغم الذي تأتي به المحبة وتجعل حلاوة التعاون مع روح الحياة، حلوة إلى درجة أنها تجعل التنازل عن الإرادة الخاصة وكل المقتنيات حلوًا، تطلبه النفسُ باشتياق وتجد ألم ترك المقتنيات، لا بل وحتى الحقوق، لذيذًا.

وهكذا لم تعد الكلماتُ تشرح الكلماتِ، بل صارت الإعلانات والحياة هي التي تقدم النماذج التي تُعيد شرح كل شيء. هذا حدث

---

(٥) الكلمة اليونانية Theandric أي الله يعمل إنسانيًا. استُخدِمَت بوفرة في المصادر النسكية، وشاعت في القرن الرابع والخامس، وما بعدهما. ليس لها ترجمة عربية، ولكنها دخلت في المصطلحات النسكية الخاصة بالصلاة وعمل الروح القدس في القلب، لا سيما شفاعة الروح القدس حسب كلمات رو ٨: ٢٥. راجع البحث الممتاز:
Anthony Papantoniou: The Theandric Mystery of Jesus Christ, 1992.

(٦) كلمة قبطية يونانية، تعني الشركة في العمل.

بتجسد الكلمة؛ لأننا أخذنا "من ملئه (يوحنا ١: ١٦) نعمةً فوق نعمة"، أي نعمة الإعلانات النبوية التي صار معناها مؤكَّدًا ومشروحًا حسب تجسُّد الكلمة. هذا هو المقصود من عبارة الرسل القديسين: "لكي يتم الكتاب"؛ لأن كمال أو تمام الكتاب يعني وصول معاني الكلمة الإلهية إلى قوتها حسب الحقيقة الماثلة أمامنا والتي نشترك فيها حسب نعمة المسيح.

لقد حقَّق التجسُّد معنى كلمة "واحد" حسب التعليم الذي أخذناه من المسيح يسوع ربنا.

"الواحد" هو الغاية الواحدة التي سَعَت إليها مريم "الحاجة إلى واحد" (لوقا ١٠: ٤٢) التي تعيد للإنسان حياته غير المنقسمة.

"الواحد"، والوسيط الذي لا وسيط آخر غيره؛ لأنه جاء بعلاقة مع الآب، علاقة خاصة لا يمكن أن تُوهَب بواسطة آخر، ولذلك يقول الرسول: "لأنه يوجد إلهٌ واحدٌ، ووسيطٌ واحدٌ بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح" (١تيمو ٢: ٥).

وما أكثر ما اضاف التجسُّد من معانٍ حقَّقها التجسُّد لكلمة "واحد"، ولعلك ترى أن "الجسد الواحد" هو معنى إيجابي، وأن "الاثنين واحدًا" هو أيضًا معنى إيجابي لا يسمح بالانفصال، بل لقد جاء التجسُّد والموت على الصليب والقيامة من الأموات وانسكاب الروح القدس بما هو أعظم: جعل السماء والأرض واحدًا، أي ليس في المصالحة فقط، بل دخلت أبعادُ الحياة الجديدة في يسوع لكي تعيد ترتيب الأمور والحياة الجسدانية حسب البُعد (أو المقياس) الأبدي السمائي.

لقد كُنَّا نأكل الطعام لكي نحيا جسديًّا، وأصبحنا نأكل الطعام الروحي السمائي لكي نحيا إلى الأبد.

وكنا نغتسل بالمياه للنظافة، فصارت المياه رَحِمًا وبطنًا للحياة الجديدة التي تُولد في المعمودية.

وكان زيت الزيتون من أدوية معالجة الجسد، فصار الدواء مسحةَ حياةٍ جديدة.

كان السجودُ عبوديةً، فصار السجودُ قيامةً، وطلبًا للحياة الحرة من الموت.

كانت الرسوماتُ قاصرةً عن الإفصاح عن الجانب الإلهي؛ لأن الرسم غرق في أوحال الوثنية، ولكن مع التجديد، صارت الأيقونات "نوافذَ" نُطِلُّ منها على الحياة الجديدة التي تُشرق ببهاء الروح القدس؛ لأن ابن الله أعاد خلق الصورة الإلهية فينا، فصار الخلقُ الجديدُ هو القوة التي تُحرِّر كلَّ صورةٍ ورسمٍ وتضعها في مكانها الصحيح؛ لأن تجديد الحياة وإبادة الموت، جعلت كلَّ صورةٍ أو نقشٍ إمَّا أن يكون له عربون الحياة حسب "فصح" الحياة أي قيامة الرب، وإمَّا أن يكون تراب الأرض غير المدعو إلى البقاء الأبدي.

١٨- وماذا نقول عن الإيمان؟ كيف غيَّر التجسُّدُ الإيمانَ وجدَّده؟

نَقَلَ التجسُّدُ معنى كلمة "الإيمان" من الاقتناع، وقبول فكرة إلى الاقتناع وقبول مسيرة الاختبار. لقد صار الإيمان بتجسُّدِ ابن الله هو عودةُ الإنسان إلى نفسه حسب كلمات الرب نفسه (لوقا ١٥: ١٧). وَجَدَ الإنسانُ في المسيح الرتبة الأعظم وسعى إليها. عاد إلى نفسه فوجد أن

دعوة الرب يسوع هي دعوةٌ صريحةٌ لأن يسعى الإنسان إلى استعادة حياته نفسها وخلاصها من براثن الموت الروحي الذي هو سبب الموت الجسداني، ومن الفساد الروحي الذي هو انحلال القوى الروحية والصراع الروحي الذي يضرب كيان الإنسان نفسه ويقسِّمه.

عندما قال الرب يسوع: "ملكوت الله داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١)، أي فيكم أنتم وفي القلب، وفي مصدر الحياة نفسها، فقد أعاد الإيمان إلى قلب الإنسان لا إلى فكره وحده، ولم يعُد الإيمانُ كلمةٌ تُقال، بل كلمةُ اعترافٍ بما هو حادثٌ وحيٌّ وعاملٌ فينا. ورَسَمَ الروحُ القدسُ ملامح الحياة الجديدة بالتجديد الذي جاء به يسوع المسيح. وكما ذكرنا -من قبل- صارت لكلمة "الواحد" حسب تدبير الحياة الجديدة، المعاني التالية:

أ- الواحدُ ليس رقمًا حسابيًّا، بل هو عضوٌ في الجسد الواحد الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية، جسد المسيح الواحد. صار بذلك "الواحد"، أي المؤمن، واحدًا في واحدٍ، أي عضوًا في الجسد الواحد (١كو ١٢: ١ - ١٤)، وفَقَدَ الجانب الحسابي أهميته؛ لأن "الواحد" لم يعد له خصوصية الانفراد بحياته لكي يحيا واحدًا حسب إرادته الخاصة، بل واحدًا حسب الشركة وفي وحدة. لذلك، "الواحد" في الواحد هو غير مقبول حسب الحياة القديمة، بل هو "رسم" الحياة الجديدة، الحياة التي لا تعرف الأرقام ولا تقوم على الأرقام، بل على الحقائق الخاصة بالحياة الجديدة. ولأن الرب هو الذي وضع هذا الرسم (الصورة المحددة)، فقد قال عن اجتماع

الكنيسة: "إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أسكن في وسطهم" (متى ١٨: ٢٠). ولم يكن الرب يتكلم عن أعداد الذين يجتمعون، بل عن الشهادة لحضوره في العالم؛ لأن القاعدة الإلهية أن لا تُقبل أيُّ شهادةٍ أو اعترافٌ بالإيمان إلَّا من فم اثنين أو ثلاثة، كما لا تُقبل شكايةٌ على شخص إلَّا بشهادة اثنين أو ثلاثة (راجع مت ١٨: ١٦، ٢٠، ١ تيمو ٥: ١٩، عب ١٠: ٢٨).

ب- "الواحد" هو الغاية الواحدة التي أشرنا إليها من قبل، والتي تحدد الشركة، وهي غاية الكل التي حُدِّدت حسب التسليم الرسولي: "ربٌّ واحد – إيمانٌ واحد – معموديةٌ واحدة" (أفسس ٤: ٤)؛ لأن الخلاصَ هو بواحدٍ يسوع المسيح، والوسيط هو واحدٌ يسوع المسيح، والاعتراف بالرب الواحد يُعلِن الغاية الواحدة التي يطلبها مَن سعى إلى الكنيسة ونال "المعمودية الواحدة" التي تقدِّس الكلَّ وتعطي الكلَّ الانضمام الواحد لجسد المسيح الواحد (١كو ١٢: ١١-١٣). والغاية الواحدة التي تجمع الجميع، حيث يلتمس الكلُّ الربَّ الواحد يسوع المسيح، تجعل "الواحد" هو الرب الذي يوحِّد وينقل المعنى الحسابي والقيمة الحسابية (العددية) إلى مستوى ملكوت الله، حيث الحياة الواحدة في الرب الواحد، والغاية الواحدة التي تجعل الواحد هو دعوةً للوحدة في الثالوث القدوس.

جـ- عندما صارت القيمة الروحية أعظم من القيمة العددية أو الحسابية، وصارت الرتبة الروحية ليست بالعدد، بل بالمواهب

وبالشركة، وصارت العظمة الحقيقية لا تُقاس بالأرقام، وصار الغِنى -كما قال الرب يسوع في المَثل- غِنىً بالله (لوقا ١٢: ٢٠)، تحوَّل التوحيدُ عن مسار إنكار التعدد، أي المرض، إلى الصحة والاستنارة بالوصول إلى الوحدة، وحدانية الثالوث. هذا التحول جاء بسبب تدبير الخلاص:

أولًا: بسبب اتحاد الاثنين في الواحد، حيث صار سر الخلاص لا يُحسَب رقميًّا (أي ١ + ١ = ٢)، بل يُحسَب نوعيًّا؛ لأن الواحد هو واحدٌ من اثنين، وهو لذلك ليس عددًا، بل هو أقنوم الكلمة المتجسِّد.

ثانيًا: صار اجتماع الله مع البشر هو من أجل غايةٍ. هذه الغاية هي الخلاص، وصار الخلاص في الاجتماع لتوحيد المتفرقين من أبناء الله. ولم يعد اجتماع المؤمنين يُحسَب عدديًّا، بل يُحسب بمثالٍ أرفع من كل الأعداد، ولا يُحسَب هذا المثال بالأرقام، بل بقوة الحياة لأنه وحدة الرأس الواحد بالجسد الواحد، أي المسيح وجسده الكنيسة.

ثالثًا: عندما نُقل الوجود الإنساني من الفساد إلى عدم الفساد، ومن الموت إلى الحياة بالصليب وبالقيامة، وصارت هبة الحياة واحدةً للكل، تحوَّل الإدراك من الجمع حسب الأرقام إلى الجمع حسب الحياة. و**الأول** هو جمعٌ للأشياء العديمة الحياة مثل النقود والمقتنيات أو الأشياء الحية مثل الحيوانات، حيث تُحسَب أهمية القطيع بعدده. أمَّا **الثاني**؛ فإن الجمع لا يُحسَب بالعدد، بل بهبة حياة ابن الله بقوة الروح القدس التي توزَّع

على الجميع، لا لكي تنقسم بالتوزيع، بل توزَّع لكي توحِّد؛ لأن الرسول بولس لم يتحدث عن انقسام الروح القدس عند توزيع المواهب على أعضاء الجسد الواحد، بل عن اتحاد أعضاء الجسد الواحد بسبب توزيع المواهب (١كو ١٢: ١-١٢).

عجزُ اللغة عن التعبير؛ إذا لم تكن لنا حياة

١٩- سبقت الحياةُ، بل الوجود الإنساني والكون نفسه، وجود اللغة. هكذا أيضًا سبقت عطية خلق الإنسان على صورة الله ومثاله كل التعبيرات اللغوية وكل الألفاظ مهما كانت. سَبَقَ الوجود الإنساني كلمة "واحد"، بل -في ترتيب الخلق حسب إعلانات الله- لم تكن أيام الخليقة الأولى الستة أرقامًا، بل ترتيبًا: اليوم الأول والثاني والثالث حتى السادس. وجاء ترتيب الخلق ليَسبِقَ الأعداد، فالأول ليس عددًا -رغم أننا يمكن أن نعبِّر عنه بالعدد، ولكن الأول يسبق الثاني في "الترتيب"[٧]. وحسب ترتيب (طقس) الخليقة الأولى، يجيء الأول حتى الخامس بخلق الكثير من الكائنات قبل خلق الإنسان في اليوم السادس. وهكذا سبق ترتيب (طقس) الخليقة ما يمكن أن تعبِّر عنه الأرقام. بل حسب ترتيب (طقس) الخليقة الأولى، دعا اللهُ آدم وحواء إلى أن يكونا واحدًا، أي جسدًا واحدًا في وحدة الزيجة المقدسة، وهنا يصبح الاثنان واحدًا، وهو ما لا يعني الوصول إلى ما هو أقل من العدد، على اعتبار أن الاثنين إذا صارا واحدًا حسب القيمة العددية، صارا أقل، ولكن إن صارا واحدًا حسب الاتحاد، صارا أعظم بسبب

[٧] الطقس هي الكلمة الأصلية في النص.

نوع الحياة الجديدة الفائقة التي لا تخضع لعددٍ أو رقم.

فإذا كان الوجود والحياة أسبق من اللغة، وجاءت اللغة إشارةٌ إلى الوجود، صار من الحتمي أن نسأل: ألا تعجز اللغة أمام سِرِّ الوجود نفسه؟ بل أمام سر كل الأسرار، وهو الله نفسه الذي ندركه برؤيةٍ تعلو على كل الألفاظ، وباستنارةٍ تعلو على كل مفردات اللغة؟

لا يكابر في هذه الحقيقة إلَّا "أحمقٌ" ناقص الإدراك والفهم.

كيف تعبِّر إذن كلمة "واحد" عن الله؟

وهنا يجب أن نقول: إذا قال الله: "أنا واحد"، وسَكَتَ بعد هذه العبارة، فقد تعمَّد أن يقود الإنسان إلى الضلال لا إلى الحقيقة. هل تستطيع أن ترى ذلك -أيها الأخ الذي تسعى للحكمة- بعينٍ قادرةٍ على أن تنفذ إلى ما هو أكبر وأعظم من كل المفردات؟

هذه هي الأدلة على الضلال النابع من كلمة "واحد"، إذا صارت هي التحديد الوحيد للكلام (الخطاب) عن الله. فهي، أي كلمة "واحد" لا تصلح للكلام (الخطاب) عن الكون؛ لأن الكون واحد متعدد بما فيه من أجرام وكواكب. ولا تصلح للكلام عن التاريخ الإنساني نفسه؛ لأنه حقبات متعاقبة، رغم أنه تاريخ الجنس البشري الواحد، الذي قدَّم الإنجيلي متَّى أجياله في سلسلة أنساب السيد المسيح، وحسب كل حقبة بأربعة عشرة جيلًا. ولا تصلح للكلام عن الإنسان نفسه؛ لأنه يرتقي من الطفولة إلى البلوغ إلى الكهولة. وهو في سن الحكمة ليس هو نفسه كما كان طفلًا، وهو ما حذَّرنا منه الرسول عندما قال: عندما كنت طفلًا كنت أفهم وأتكلم كطفلٍ،

ولكن لمَّا وصلت سن الرجولة (النضوج) أبطلت ما للطفل (راجع ١ كو ١٣: ١١). وإذا كانت هذه الكلمة الواحدة لا تصلح للكون ولا للتاريخ الإنساني ولا للشخص نفسه، فكيف يمكن قصرها على الله، واعتبارها الحد الأقصى والأعظم للحق الخاص بالله، في حين أنها -كما رأينا في الأسفار المقدسة- من أجل النهي عن الشِّرك، كما ورد في سفر التثنية وغيره من الأسفار: "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا ربٌّ واحد". ولكن "الرب الواحد" هو الإله الذي خلَّص بني إسرائيل وقادهم من أرض العبودية إلى الحرية، فهو ليس فقط الإله الواحد، بل الرب الذي خلَّص وفَدى وصار بذلك:

- الراعي
- الفادي
- الصخرة
- الملجأ
- الزوج

إلى جانب استعاراتٍ أخرى تؤكد العلاقة الشخصية بين الله والشعب القديم. فلم يتوقف الإعلان عند عبارة "الإله الواحد"، أو "الرب الواحد"، بل نقل الإعلانُ كلمة "الواحد" كتعبيرٍ عن قوة وخلاص وفداء الله بأعمالٍ ظاهرة مرئية مثل عبور البحر الأحمر، ونزول المن والسلوى، وخروج الماء من الصخرة، والاستعلان (الظهور) الإلهي على جبل حوريب. هذه الإعلانات أكَّدت وحدانية الله بالمعاني الإيجابية السابقة، مثل الراعي والفادي والمخلِّص، ولم تتوقف عند مجرد نفي الشِّرك وتعدُّد الآلهة.

فإذا لم تكن هناك حياةٌ مؤسَّسةٌ على علاقة شخصية (أقنومية) مع الله، كيف يمكن لكلمة، ولكل كلمات اللغة، أي لغة، أن تبني علاقةً شخصيةً مع الله؟ ألا ترى أن كلام (خطاب) الله لا يكفي بدون إعلانات عن شخص الله؟ ويجب أن ننتبه إلى أن اللغة الإنسانية تعجز بدون الحياة؛ لأن اللغة لا تأتي من فراغ، والكلمات لا تؤسِّس العلاقة مع الله إن لم يكن لهذه العلاقة أساس. وما هو هذا الأساس، إن لم يكن ينبوع الحياة الإلهية نفسها؟ فمن أين يأتي الإنسان بقدرة أو بمعرفة أو بشركة مع الله لا تُمنَح له من الله؟

إمكانيات الإنسان وحدها لا تكفي

٢٠- نحن لا ننكر أن الله أعطى الإنسان القدرات على النطق والفهم والإرادة، بل والمحبة. هذه القدرات لا تعني شيئًا إن لم تُعطَ للإنسان نعمةُ الاقتراب من الله لا لكي يتحدث معه الإنسان فقط، بل أيضًا لكي يأخذ من الله الحياة الأبدية التي لا تموت.

نحن نملك أن نتصوَّر (نتخيل) ما نشاء، لكن التصوُّر (الخيال) لا يحقق شيئًا؛ لأنه مهما كانت نقاوته، لا يملك أن يجعل الإنسان أيَّ شيء، ولا يقدِّم للإنسان ما يريد أن يملكه. قد نتصوَّر أننا نريد أن نطير مثل الطيور، أو نعبُر المياه دون سباحة، أو نسير في الهواء، ولكن كل هذه التصورات تفوق ما نملك.

قد نشتهي كل ما نعرفه عن الله، ولكننا لن نناله حتى يقدِّمه الله لنا. وما نسمعه من "العارفين بالله"[٨] عن محبتهم لله وتعلقهم

[٨] هذه فرقة من فرق التصوف الذي انتشر في أواخر القرن الثامن. وأنضم هؤلاء فيما بعد إلى الإسلام بقيادة القس النوبي زينون.

بالمحبة الإلهية، يجب أن يقوم على أساس ما يقدِّمه الله بنفسه، وليس على ما يتصوَّره هؤلاء، مهما كانت درجة نقاوة فكرهم؛ **لأن المحبة شركة والشركة عطاءٌ متبادَل، نقدِّم نحن فيه ذبيحة حياتنا المتواضعة، ويقدم فيه الثالوث انسكاب الروح القدس في قلوبنا** (رو ٥: ٥).

التوحيد والصلاة حسب تعليم الرب يسوع المسيح

٢١- ما هي علاقة التوحيد بالثالوث وبالصلاة؟

قد يبدو لك أن الصلاة لإلهٍ واحدٍ سهلةً. ونحن نسمع أحيانًا هذا السؤال الساذج الناجم عن عدم الخبرة: هل نصلي للآب أم للابن أم للروح القدس؟ بل تصل السذاجة بالبعض إلى حدِّ التصوُّر (التخيل) أن الصلاةَ للآب وحده قد تُغضِب الابن، أو أن الصلاةَ للابن تجعل الآب غيرَ راضٍ عن الصلاة. هذه خيالات غير الفاهمين، التي تصدر عن وثنيةٍ خفية تظنُّ أنه يوجد صراعٌ في الثالوث الواحد، أو أنه توجد مسافةٌ تفصل بين الآب والابن والروح القدس. هذه أمورٌ ساذجة لا تستحق البحث، ويكفي أن نقول إن الآب في الابن في الروح القدس، وإن أيَّ صلاةٍ باسم الابن هي للآب والروح معًا، بل إن مَن يُصلي باسم الابن إنما يُصلي بالروح القدس، ومَن يُصلي للروح القدس إنما يُصلي بالابن لأنه روح مسحة يسوع. ووحدة جوهر الثالوث لا تسمح بالانفصال، وبالتالي لا تجعل أقانيم الثالوث كلٍّ في ناحية لا يعرف ولا يحيا مع الآخرين ذات الحياة الإلهية الواحدة، بل حياة واحدة، إرادة واحدة مثلثة لأقانيم ثلاثة لا انفصال فيها بسبب المحبة الواحدة للثالوث التي تجعل إرادة الثالوث، ارادة لمحبة مثلثة، من

الآب بالابن (في الابن **ϧⲉⲛ**) بالروح، أو في الروح (**ⲇⲓⲁ**).

٢٢- نحن نصلي في الابن **أولا** كرأس الخليقة الجديدة، و**ثانيًا** كوسيطٍ وفادٍ ومخلِّص نقدِّم باسمِه كلَّ شيء، و**ثالثًا** كضامنٍ للعهد الجديد الذي فيه كل "النِّعم" (٢ كو ١: ١٧) والذي لا يوجد فيه "لا" ونَعَم"؛ لأن "لا" قد أُبيدت في المصالحة، و"نَعَم" قد ثبُتت بالغفران وبقوة قيامة وحياة المخلص.

هنا الصلاةُ، ليست "دعاءً" مثل "دعاء" العارفين بالله، بل قبل كل شيء **هي ظهور نعمة الله الآب في ابنه يسوع المسيح، ودعوةٌ إلهية للاشتراك في حياة ابنه يسوع المسيح ربنا**، بذلك صارت للصلاة ملامح إلهية - إنسانية معًا مثل ملامح "الواحد من اثنين"؛ يسوع المسيح. هي **أولًا:** إلهية؛ لأننا مدعوون للتبني في يسوع المسيح، وهي **ثانيًا:** إنسانية؛ لأننا مدعوُّون للفداء وتحرير طبيعتنا من الموت والخطية والشركة في الطبيعة الإلهية لكي تصل إنسانيتنا إلى كمالها في يسوع المسيح "ملء قامة المسيح" (أفسس ٤: ١٣).

لذلك، نحن نشترك في الحياة الإلهية **أولا** من الرأس يسوع المسيح الذي يجمع أعضاء جسده بقوة وحياة أقنومه الإلهي، وبالشركة في صلبه ودفنه وقيامته في أسرار الانضمام إلى الكنيسة جسده (المعمودية – الميرون – الإفخارستيا). هنا تأمّل -يا زينون- كيف نصبح جسده، كيف هو جسدنا، وكيف نحن جسده؟ هذا عائدٌ إلى المحبة الإلهية الخاصة بالثالوث، المحبة التي لا يوجد شبيهٌ أو مثالٌ قريبٌ منها يدلنا عليها، المحبة التي جعلت الآب السماوي يرسل ابنه الوحيد لكي

يتجسَّد، ولكي يأخذ من جنسنا الساقط ذات الطبيعة التي لنا -ما عدا الخطية- ويجعلها واحدًا مع لاهوته "بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير" لكي تبقى إنسانيةً إلى الأبد، متألِّقةً بجمال المجد الإلهي الذي اتَّحد بها، وبعدم الفساد الذي لبسته من اللاهوت، وصار طبيعةً لها، وبالقوة المحيية التي جعلت الجسد "المحيي"، فصار بذلك ينبوع الحياة الفائض الذي تسري منه قوة الحياة والقيامة من ينبوع "الاتحاد الأقنومي"، لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت فَتَحَ باب حياة الاتحاد بين كل المائتين، وصار الكلُّ مدعوًّا في يسوع إلى حضن الآب.

هكذا تتحقق غاية "الواحد من اثنين"؛ لأن إنسانيتنا ليست فقط ماثلةً في رأسها، بل حيَّةً بواسطة الرأس إلى درجة أن يصبح كلُّ عضوٍ محبوبًا ومتَّحدًا بالابن في أعضاء جسد الابن يسوع المسيح، وملتصقًا بالرأس، أي الينبوع إلى درجة لا يمكن التعبير عنها.

نحن أعضاء جسد ابن الآب، يُحبُّنا الآبُ كما يحب أعضاء جسد ابنه التي تحمل رسم تواضُع الآب في تجسُّد الابن، وجراح محبة الصليب في بذل المحبة، وقوة وبهاء القيامة؛ لأن الفساد والدينونة قد أُبيدا وطُردا من الشركة في طبيعة الثالوث.

وثانيًا نحن نشترك في الطبيعة الإلهية كبشرٍ تحرروا من الموت، وبسبب الحرية التي حررنا بها الابنُ من الدينونة؛ أي رفض الخطاة. ومن الفساد؛ أي العودة إلى انحلال وضعف الجسد. ومن الموت؛ أي البقاء في القبر كتراب. نظلُّ أحياءً إلى الأبد، ليس بقدراتنا ولا بطعامٍ نأكله أو ملابسَ لا تبلى مثل ملابس بني إسرائيل في برية التيه (تث

٨: ٤)، بل كل الذين "لبسوا الرب يسوع" (رو ١٣: ١٤) صار لهم بهاء مجد جسده (فيلبي ٣: ٢١)؛ لأننا نحن سنحيا في نور المحبة الإلهية وقوتها في توحيدنا بالثالوث إلى الأبد.

هذه هي الملامح الإلهية - الإنسانية التي جاء بها الابن، فصارت الصلاةُ دعوةً إلى الشركة في الإعلانات، ولم تعُد كلمات تُقال، بل صارت الكلمات دلالات على ما يُعطى، ولم تعُد عباراتٌ تُسمَع، بل صارت العبارات تُعلِن هبات الله. هذا التحول الكبير والمجيد يضعنا أمام سؤال هام (حرفيًا ضروري) لابُد من الإجابة عليه:

هل نحتاج إلى الثالوث لكي ندخل هذه الإعلانات ونشترك فيها ونحياها؟

لعلك -أيها الأخ العزيز علينا جميعًا- قد لمحت الإجابة التي سوف تقرأها، ولكن من الضروري أن أُعلِن لك شهادتي عن الإيمان القويم الأرثوذكسي لكي تبدأ بالسير معنا:

أولًا: إن كل ما نذكره عن الخلاص والشركة في الله مستحيلٌ تمامًا بدون التجسُّد، وبدون التجسُّد لا يمكن أن نتكلم عن الآب والابن والروح القدس، فقد جاء التجسُّد بإعلان الثالوث؛ الابن في أحشاء البتول، والروح القدس يظللها، والآب يشهد عن تجسُّد ابنه عندما أرسل الملاك بالبشارة.

ثانيًا: وبتجسُّد الابن الوحيد حدث التحول العظيم في كيان الإنسان، التحول الذي فتح له باب الحياة الأبدية والشركة في الطبيعة الإلهية؛ لكي يحيا إلى الأبد حُرًّا خالدًا سعيدًا سعادةً أبديةً، فقد جاء الله، ليس

بعبورِ مسافةٍ، فهو "مالئ السموات والأرض"، ولكنه تنازَل وبتواضعٍ لا يمكن التعبير عنه، حتى أن المُعلِّم الإلهي بولس -الذي اختار كلماته بوحيٍ من الروح القدس- قال عن تجسد الرب: "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦)، والإخلاء لا زال يعمل في تدبير الخلاص حتى الآن، لأن الرب يسوع "يخلي" ذاته عندما يقدِّم ذاته طعامًا للحياة لنا نحن الذين -مهما كانت حياتنا- سنبقى دائمًا غير أنقياء. لكن جاء التحول العظيم في كيان الإنسان على النحو التالي:

أ- لم يعُد الإنسان غريبًا عن جوهر الله؛ لأن الوسيط يسوع المسيح مُتَّحدٌ إلى الأبد بذلك الجوهر.

ب- حوَّل الربُ يسوع الناسوتَ من حياة متأقنمة بالإرادة الخاصة، عاملة ومتحركة باستقلال تام عن الله، إلى حياةٍ متأقنمةٍ بالاتحاد بلاهوته وأقنومه الإلهي، وتأقنمت الإرادة الإنسانية، فصارت تتحرك بالدافع الأول الذي أُعطيَ للإنسان الأول، وهو العطش والحب، وصارت الإرادة الإنسانية الخاصة تتحرك حسب تدبير الاتحاد الأقنومي، مما جعل كل صفات الناسوت التي اكتُسِبَت من اللاهوت مثل عدم الألم، والخلود وعدم الموت، والمحبة الإلهية، والحرية التامة، والقداسة، والقدرة على إعطاء الحياة مثلما حدث مع نازفة الدم والمولود أعمى، فصارت هذه الصفات إلهية – إنسانية، تتحرك وتعمل بقوة الأقنوم الإلهي المتجسِّد؛ مما غيَّر الصلاةَ تمامًا من دعاءٍ وطلب لمن هو منفصلٍ عن الإنسان؛ أي الله، إلى مَن هو متَّحدٍ

بالإنسان، حيٍّ معه وفيه حسب التدبير، ويقوده برفق نحو المجد.

جـ- وعندما نُصلي للآب في ابنه يسوع المسيح ربنا، أو نُصلي للابن بالروح القدس، أو نُصلي للروح القدس بالابن، فإننا ننتقل من الدعاء حسب الإرادة الخاصة بنا إلى الدعاء حسب إرادة الابن المتجسد المتأقنمة بالاتحاد، ولذلك قال الرب يسوع: "مهما سألتم باسمي فإني أفعله" (راجع يوحنا ١٦: ٢٦). وهذا يضعنا أمام مرتبة الصلاة حسب دعوة الرب يسوع بشكلٍ لا مثيل له في "دعوة الموحِّدين"؛ لأن مَن يدعو الله الواحد، ليس كمَن يدعو الله الواحد في الثالوث، الذي أحد أقانيمه هو الابن -الذي جاء بالتبني- وهو أيضًا إنسان.

نحن هنا لا نَصِف مجد الإنسان في يسوع المسيح، فهذا واضح، ولكن نَصِف علاقة الشركة الجديدة التي لم تكن متاحةً حتى أمام أنبياء بني إسرائيل، رغم أنهم أخذوا الروح القدس.

لقد حوَّل التجسد الإلهي، الكلمات من نطقٍ إلى علاقة، ومِن علاقة إلى شركة، ومن شركة إلى اتحاد، ومن اتحاد إلى نوال مجد الابن الوحيد المعلَن لنا في حياته حسب شهادة الأسفار المقدسة، بل وحسب شهادة معلمي الإيمان الذين عشنا معهم ورأينا مجد يسوع مشرقًا في أجسادهم.

ثالثًا: حاشا لله ولنا أن نكون قد اخترعنا تجسُّد الابن لكي نبرر الثالوث، بل جاء الإعلان أولًا في لغة أسفار العهد القديم، وجاءت كلمات كثيرة مثل "الوجه"؛ أي "الأقنوم"، و"الجوهر"؛ أي الكيان أو "الحياة" التي نقلت إلينا كلمات الروح القدس بواسطة يهود الإسكندرية الذين ترجموا الأسفار المقدسة إلى لغة الأمم (من العبرانية إلى اليونانية)، أي الترجمة السبعينية لكي تنشر البشارة في كل الأرض.

والابن هو "وجه" الآب، ليس بالمعنى الحسي أي "العينين والأنف"، بل المعنى الخاص بالوحي وبالإعلان، أي الرؤيا؛ لأن الله لا يعلِن للإنسان ما هو معروفٌ له، ونحن لا نحتاج إلى رؤيةِ "وجهٍ"؛ لأن لكل واحد منّا "وجهًا"، بل -حسب الإعلان الإلهي- "الوجه" هو بشارةٌ وخبرٌ معلَنٌ من الله في عبارات وتعبيرات وأحداث وحقائق، ولذلك عندما يقول داود: "لا تحجب وجهك عني" (مز ٢٧: ٩ – ٦٩: ١٧ – ١٠٢: ٢ – ١٤٣: ٧) فهو يعني شخص (أقنوم) المخلِّص، الملك الحقيقي لإسرائيل.

الأقنوم يُعلن توحيد الله

٢٣- عندما نعترف بثلاثة أقانيم في جوهر اللاهوت، فنحن نعترف بالإله الواحد. ولا يوجد تعارُض بين الواحد والثلاثة إلَّا لمن شاء أن يستخدم الأرقام الحسابية في الكلام عن الله الذي يفوق كل قواعد الحساب؛ الضرب والجمع والقسمة والطرح؛ لأن الله ليس فقط أعظم، بل لأن الله حياةٌ ساميةٌ تعلو على كل مصطلحات الإنسان. فالواحد الذي يُعلِن في كيانه اثنين آخرين، أي الابن الذي أعلن

بتجسده الآب والروح القدس هو واحدٌ معهما في الحياة والحركة. فالحياة السكونية التي لا حراك فيها ليست حياةً إلهيةً، بل هي الوجود للكائنات الغير العاقلة مثل الصخور والرمال. أمَّا ما هو عاقلٌ، فهو حيٌّ، والحياة حركة؛ لذلك جاءت حياة الثالوث مستعلَنةً في أقنوم الابن بشكلٍ خاص؛ لأنه في كيانه، لا فصلَ بين الكيان؛ أي كيان الابن، وبين إعلان تبني الإنسان؛ لأن الكيان والعطية هما حقيقة واحدة، واختلاف الكلمات أو الأسماء لا يغيِّر من الواقع؛ لأن اختيار اسم مثل "الأقنوم" واسم آخر هو "عطية التبني" هو التنوع الخاص بكثافة الحياة العقلية التي لا تنحدر إلى مستوى الوجود والبقاء مثل الصخور والرمال؛ لأن الحركة تخلق الكلمات، والعطاء يخلق المصطلحات. وحسب الصلاح الإلهي، لا يوجد فصلٌ بين العطاء والكيان؛ لأن العطاء لا وجود له إلَّا بكيان العاطي أو المانح.

٢٤- إن فصلًا في كتاب هو جزءٌ من كتاب، وبدون هذا الفصل يصبح الكتاب ناقصًا. هذا تشبيهٌ لحركة المحبة الإلهية نحونا؛ لأن الآب أرسل الابن لكي يمنح الإنسان "التبني" (غلا ٤: ٤-٦) عطيةٌ من كيان الابن، ولا تنتمي إلى المخلوقات، ولا هي مخلوقة؛ لأنه لو كانت عطية التبني عطية مخلوقة؛ لكان العاطي أو الواهب هو أيضًا مخلوقًا، وينتفى سبب تجسُّدِه. فالابن ليس جزءًا من كيان الله، ولا هو مثل فصل من كتاب -يجب التحذير- ولكن حذف الابن يجعل إعلان الله عن ذاته كآب بلا معنى. فهو آب لأن له ابنًا.

٢٥- وتمايُز الابن والآب ليس حسب اللفظ؛ لأننا قد نختار أكثر من اسم لشخصٍ واحد، وقد فعل الرب يسوع هذا عندما أعطى لسمعان اسم كيفا أي الصخرة، وصار يُعرف باسم بطرس، ولكن يظل الشخص هو ذاته، رغم تعدد الأسماء والألقاب. ويبدو قصور تعدد الأسماء لشخص واحد في أن الشخص الواحد لا يملك أن يعطي أكثر مما يملك، كما أن تعدد الأسماء لا يضيف للشخص قوةً أو يعطي له إمكانية عطاء أوفر، لكن العطاء الإلهي جاء بمجيء الابن، وبقاء الابن متمايزًا عن الآب هو لبقاء تمايز كل الذين دُعُوا للتبني عن الآب نفسه، وعن الابن أيضًا، ليس بسبب اختلاف الأسماء، بل لأن العطية، وإن كانت لا يمكن فصلها عن كيان العاطي والواهب، إلَّا أنها تظل عطيةً، أي تعطي ما لم يكن موجودًا أصلًا، وهو احتياج الإنسان الذي أُعطيَ نعمةً أُضيفت إلى كيانه لكي ينمو بالعطية نحو التبني، ويدرك من التبني أنه في الابن منعطفٌ إلى الأبد نحو الآب، ومتحركٌ بالابن نحو الآب. هذه الحركة تنعدم تمامًا إذا ذاب التمايُز أو اختفى، ولكنها تأخذ وجودها، ليس من الاسم، بل من الكيان الذي أعطى الاسم، أي من كيان الابن الذي أعطى لنا كلمة "ابن"، ووهب لنا "عطية التبني".

٢٦- الابن يقدِّمُنا للآب لكي نكتشف الوحدانية الحقيقية، أي ليس تلك التي يحددها العقل بالنفي (نفي تعدد الآلهة) أو بالإيجاب (الاعتراف اللفظي بالواحد)، بل بتذوق:

- التمايز
- والوحدانية؛

لأننا ندرك هنا -من خلال الشركة- أن الله واحدٌ يحمل في كيانه الإلهي بقاء الإنسان ابنًا حيًّا إلى الأبد في شركة التبني، ولذلك السبب نفسه تصبح وحدانية الله اختبارًا يُعاش يعبِّر عنه اللفظ، لا لفظًا يُقال يفتقر إلى الكيان أو الوجود الحقيقي الذي يعبِّر عما هو كائن.

٢٧- فإذا كنّا قد وصلنا إلى هذه النقطة الفاصلة بين توحيد حقيقي وتوحيدٍ مزيَّف، أصبح من الضروري أن نميِّز ثلاثة أشياء لا يمكن الاستغناء عنها:

أولًا: وحدانية تُعاش في شركة تمايُز، وهي لذلك

ثانيًا: وحدانية تُعاش في شركة كيانية لم يؤسِّسها اللفظ.

ثالثًا: وحدانية تحفظ التمايز وتظل وحدانية غير قابلة للنقص أو الزيادة أو الإضافة؛ لأن ما يختبره الإنسان هو حقيقة أبدية.

الحياةُ في شركة ليست حقيقة بدون التمايز، والشركة ليست لفظًا يُقال، بل حقيقة وعلاقة تفوق كل لفظ، وتحفظ الشركة الوحدانية؛ لأنها غاية وهدف المحبة.

المحبة حركة دائمة

٢٨- الشركة هي الوجه الحقيقي للمحبة، فهي حركةُ عطاءٍ وقبول. ولذلك، عندما يقبل الثالوث فقر الإنسان، فهو يعطي للإنسان التبني في الابن لكي يدخل كلُّ إنسانٍ شركةً حقيقية. وتعدُّد الشركاء هو الغنى والفيض غير المحدود للصلاح الإلهي؛ لأننا جميعًا نشترك في محبة الله المُعلَنة في أقنوم الابن، والذي فيه أُعلِن الآب والروح القدس.

المحبة تُشرِك "والشِّركُ في المحبةِ توحيدٌ"؛ لأنه يتَّجه نحو الوحدانية، فالمحبة التي تجمع، تجعل الصلاة شركة، وتصبح الصلاة علاقةً كيانية صادرة من التحول في طبيعة العبد (الإنسان) بالنعمة إلى تحوُّلٍ يعطى في النعمة (التبني)، ومَن يخاطِب الله الآب كآب ليس كَمَن يخاطبه كعبد. فالتغيير ليس لفظيًا، بل هو تغييرٌ في العلاقة التي يعبِّر عنها اللفظ، هو تغييرٌ في علاقة الشركة.

الأقنوم يوحِّدُنا ولا يفرِّقنا

٢٩- جاء الابنُ لكي يجمع لنفسه شعبًا جديدًا له قلبٌ واحدٌ وإرادةٌ واحدةٌ، ولم نسمع تعليمًا فقط، بل رأينا المثال الواضح الذي نَقَلَ فيه أقنوم الابن المتجسِّد، الوعي بالوحدانية من التشتُّت الحادث بين البشر إلى "الجسد الواحد". وترجمة قول الرب: "أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان" إلى "جسد المسيح الواحد" (١كو ١٢: ١٢)، هو ترجمة ينتقل فيها الوعي بالممارسة الأسبوعية في العشاء الرباني (١كو ١٠: ١٦)، ويسبق العشاء الرباني "ختانُ المسيح" المعمودية (كولو ٢: ١١) التي نخلع فيها الطبع القديم ذا الميل للعزلة والأنانية إلى الطبع الجديد؛ أي خلع الإنسان القديم وصلبه، فلا يصبح التجديد لفظًا وخطابًا، بل حقيقةً وواقعًا يُعاش بالممارسة؛ إذ يسبق عشاءَ الرب معموديةُ المسيح؛ أي الصلب والدفن والقيامة معه وبه (رو ٦: ١-٨).

حديثنا عن السرائر يحتاج إلى دراسةٍ أشمل وأوسع نتناول فيها التحول الكياني في الإنسان لكي يعود الوعي الإنساني إلى الاتحاد بالمسيح؛ لأن هذا الاتحاد يجعلنا:

- واحدًا مع الرب يسوع المسيح
- واحدًا كلٌّ مع الآخر

ولا يمكن فصل هذا "التوحيد"، فهو هنا ما يُختَبَر لا ما يُقال، وهو هنا ما يُعاش مع شعب الله، لا ما يلفظه الإنسان من كلمات.

٣٠- هكذا جاء الأقنوم لكي يجمع "المتفرقين إلى واحد" (يو ١١: ٥٢) إلى شخصه الذي هو واحدٌ مع الآب وواحدٌ مع الروح. وفي وحدانية الابن مع الآب والروح القدس، ننال نحن جميعًا شركةً توحِّدُنا؛ لأن عمل الرب يسوع فينا هو الذي يعطي لنا نعمة الروح القدس، ونعمة الروح القدس هي التي تجعلنا نعترف ونعرف المسيح كربٍّ (١كو ١٢: ١-٣) لأن هذا ليس اعترافًا لفظيًا فقط، بل هو ثمرة الحياة الجديدة.

٣١- التوحيد هو اختبارٌ يسبق الاعتراف، وقد يمهِّد له الاعتراف إذا كان التعليم واضحًا وصريحًا ينقل الوعي من آدم الأول إلى آدم الأخير؛ أي يسوع الذي لم "يَعِش لنفسه"، ولا كان فردًا منفصلًا بل جمع الكلَّ فيه لأنه الإله المتجسد.

التوحيد بشارةُ خلاصٍ وحياة

٣٢- لأن اقنوم الابن له المجد جاء في الجسد، وأعلن وحدة أُقنومه، ولم يترك جسده للفساد، بل قام بمجد الخلود، وهو مجد الأُلوهة جامعًا إيّانا حوله رأسًا جديدةً للإنسانية الجديدة موحِّدًا إيّانا في شخصه؛ أي في أُقنومه المتجسِّد، صار التوحيد بشارةَ خلاصٍ وحياة، بشارةً مفرحةً؛ لأنه

هزم الموت في جسده، وجمع الكلَّ أعضاءً له، وسكب الخلود في كياننا من كيانه الغالب الموت. بهذا قضى على التوحيد السلبي الذي كان ينكر تعدُّد الآلهة في العهد الأول، وأعطانا بشارة الفرح بأننا مُوحَّدون بالثالوث فيه، فصار الاعتراف بالإله الواحد هو اعترافٌ بالحياة وبالفرح.

٣٣– لذلك صارت غاية الصلاة هي أن "توحِّدُنا" بالله الثالوث، وصار الاعتراف بالإله الواحد، ليس كما كان سابقًا، بل كما هو صائر الآن "ليكون الجميع واحدًا فينا كما أننا نحن واحد" (يوحنا ١٧: ٢١).